لا قيام لأمة صالحة بغير قانون

بدأ رسول الله ، مشاوراته مع رجال الأمة لوضع « الصحيفة » أو « القانون الأساسى » لأمة الإسلام أثناء بناء المسجد ، أى بعد شهرين أو ثلاثة من استقراره فى المدينة . وكانت السرايا الأولى قد خرجت ، فبعد سريتى « سيف البحر » و « رابغ » اللتين ذكرناهما . خرجت سرية « الحزار » بقيادة سعد بن أبى وقاص فى ذى القعدة سنة ١ للهجرة - مايو ٦٢٣ - وهى سرية بعيدة المدى ، وصلت إلى منتصف المسافة بين المدينة ومكة تقريباً ، لأن رسول الله كان يسير فى عمله على خطة دقيقة محكمة ، فقد سيطرت المدينة بسريتى « سيف البحر » و « رابغ » على طريق التجارة المكية بين المدينة والبحر .

وجاءت سرية « الحزار » فبسطت سلطان المدينة على قبائل كبيرة كانت فى مضى إما فى حلف قريش وإما فى خوف منها ، مثل غفار وجهينة وخزاعة ، فأصبحت هذه القبائل ومنازلها الواسعة غير آمنة بالنسبة لقريش ، وبعد ثلاثة أشهر من « الحزار » سيخرج محمد ﷺ بنفسه بغزوة بواط (بضم الباء) وحالف كل القبائل التى كانت تسكن على طريق التجارة الفرعى الذى يمر بإقليمين من أغنى أقاليم الحجاز وهما العرج (بفتح العين وسكون الراء) والفرع (بضم الفاء والراء) (صفر سنة ٢ للهجرة - أغسطس ٦٢٣ م) .

ومعنى ذلك أن جماعة الإسلام فى المدينة كانت تخطو خطوات سريعة واسعة نحو القوة الدينية والاجتماعية والسياسية ، فهل يظل الأنصار بعيدين عن ذلك كله ، وزعماؤهم فيما نعلم كانوا رجالاً عظاماً على إخلاص بالغ للإسلام واستعداد عظيم للمشاركة فى بناء أمته ؟ . .

هل كان من الممكن أن يحدث هذا كله ورجال من أمثال أسعد بن زرارة ومعاذ بن جبل ومعاذ بن الحارث وعبد الله بن رواحة وبشير بن سعد وأمية بن النعمان بن بشير ورافع بن مالك بن العجلان وبشر بن البراء بن معرور ومعاذ بن عمرو بن الجموح وثابت بن الجزع وغيرهم من النقباء وشباب الأنصار ، هل كان من الممكن أن يظل هؤلاء جميعاً بعيدين عن تلك المعركة الكبرى والتطور الشامل مع مانعرف عنهم من ملكات وقدرات وإخلاص عظيم ؟ .

إن كل واحد ممن ذكرت وعشرات غيرهم سيكتبون صفحات بعد صفحات من أنصع ماعرف تاريخ البشر ، فكيف يظلون فى موقف المشاهدين ورسول الله بين أظهرهم يبنى أمة الإسلام ومجدها فى دأب وصبر يروعان النفس ؟ .

ولو أراد رسول الله ﷺ لأمرهم بالخروج فى المغازى وإنفاق النفس والمال ، ولو أمرهم لبادروا إلى تنفيذ ماطلب ، ولكنه كان كما رأينا يشعر شعوراً عميقاً بأنه يبنى أمة الإسلام ، وهو نبيها ورسولها وداع إلى الله بإذنه فيها وهو السراج المنير ، أى هو القدوة والأسوة ، فكل تصرف يتصرفه سيصبح قاعدة وأسوة ، وأمة الإسلام ليست كغيرها من الأمم ، إنها خير أمة أخرجت للناس ، وينبغى أن تظل كذلك .

وهو صلى الله عليه وسلم لم يكن يبنى دولة ، لأن الدولة قوة سياسية تجرى الأمور فيها - بحسب مفهوم الجاهلية - أى ماقبل الإسلام - على رئيس يأمر وينهى ومرءوسين يطيعون ، على سادة يسوسون الناس كما يسوس الراعى

غنمه ، أى يتصرف فيها كما يريد ، إنما هو كان يبنى أمة على الإيمان والاقتناع والشورى والتراضى والتساوى أو « السوية » كما قال أبو بكر ، وهو أكبرمن تلقى درس الأسوة الحسنة من رسول الله ووعاه ، ولا عجب أنه الخليفة الوحيد فى تاريخ الإسلام منذ كان الإسلام ، الذى انتخب انتخاباً حراً فى اجتماع علنى مفتوح حضره من شاء من المسلمين ، وأبدى كل إنسان رأيه فيه حتى استقر الأمر لأبى بكر عن رضا واقتناع وطواعية من كل الناس .

* * *

هذا كان رسول الله دقيقاً جداً فى كل خطوة يخطوها ، فقد كان يعلم أن كل كلمة منه ستصبح سُنّة أى طريقاً يتبعه الناس . كان يتحرى أن يكون تصرفه قائمًا على الإسلام نابعاً من القرآن ، يقصد فيه أولاً إلى ضرب الأسوة الحسنة للناس .

ولقد ذكرنا أمثلة من ذلك فى حديثنا الماضى ، ونضيف إلى هذا شاهدين صغيرين . أولهما ماقاله خادمه وصاحبه أنس بن مالك من أن رسول الله ﷺ لم يرفع عليه أو على أحد ممن حوله صوتاً ولا يداً ، بل كان دائمًا رفيقاً بالناس متسامحاً ـ دون تفريط ـ ملتمساً لهم العذر حتى إذا أخطأوا .

ولقد سها بلال بن رباح ذات مرة عن أن يوقظ الرسول ﷺ لصلاة الفجر ، فلمَّا كَلَمَهُ الرسول فى ذلك فى رفق كان جواب بلال خشناً بعض الشىء ، قال : « أنام عينى الذى أنام عينك » فما رد الرسول عليه بكلمة ، بل أخذها على مأخذ الطيبة وحسن النية ، وابتسم وطلب إليه أن يعجل بالأذان .

والمثل الثانى ماحكته السيدة عائشة من أن رسول الله ﷺ لم يشته فى حياته طعاماً ، إنما كان شأنه أن يأكل ماحضر دون أى تكلف ، فإذا كان فى البيت لحم أكل اللحم ، وإن لم يكن فيه إلا خبز الشعير والخل والزيت أكل خبز الشعير بالزيت والخل ، وذلك حتى لا يشق على أهله . وهل تظن أن رسول الله لم يشته فى حياته طعاماً ؟ بلى ، كان يشتهيه ، فهو بشر فى كل مايتصل بالبشر ، ولكنه كان يضرب المثل ويقدم الأسوة الحسنة ، وكأنه ﷺ أراد أن يقول للرجال : لا تشقوا على أهل بيتكم ، وكونوا معهم على الحسنى : لا أمر ولا تكليف ولا مشقة ، بل يكون الرجل فى بيته القدوة فى الطيبة والتسامح والقناعة وحسن الخلق والعشرة .

وتلك هى الأسوة الحسنة .

فهل وعاها المسلمون ؟

وهل يذكر واحد من المسلمين أن رسول الله ﷺ لم يطلق امرأة فى حياته قط ، لقد أحل الله الطلاق ، وهذا هو القرآن ولكن الرسول لم يطلق مرة واحدة ، وتلك هى السنة فى تطبيق شريعة الإسلام على أحسن مايكون التطبيق ، فهل أدرك المسلمون ذلك وطبقوه ؟ .

لقد كان رسول الله يعرف أن الطلاق ضرورة يتطلبها صلاح الكون ، ولهذا أحله الله ، وجاء رسول الله عند التطبيق فضرب لنا المثل الأعلى فى الصبر على متاعب الزوجية ، ولقد بلغ من غضبه يوماً أن اعتزل كل نسائه ـ دون طلاق ـ وأتاه عمر فطلب إليه أن يطلق نساءه كلهن ويتزوج غيرهن ، ولكن الرسول رفض وأمسك عليه نساءه حتى جاء أمر الله بإرجاء بعض نسائه اللاتى كن يغضبنه ، ففعل ولم يطلق منهن واحدة .

ولماذا لم يطلق الرسول ؟ لأنه كان يعرف أن الطلاق هدم للأسرة وإذلال للمرأة وتضييع للأولاد ، ومن ثم فلاينبغى اللجوء إليه إلا إذا كان استمرار الزوجية على بغض وتنافر هدماً للأسرة وشقاء للزوجين وإفساداً للأولاد ؟ .

فهل تبع المسلمون هذه السنة ؟ .

افتح أى كتاب من كتب الفقه وتعجب من التيسيرات التى أباحها الفقهاء فى موضوع الطلاق حتى أصبح الزواج فى نظرهم متعة للرجل وحده ، فإذا لم يجد المتعة طلق وأذل الزوجة ، وشرد الأولاد ، ولا بأس عليه فى ذلك مادام يؤدى نفقة الزوجة ـ ومأأقلها ومأأقصر مدتها ـ ومؤخر الصداق . تأمل معى ذلك تفهم لماذا لم تظل أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس ، ولو أنها اتبعت أسوة الرسول فعلاً لكانت إلى أبد الدهر خير أمة أخرجت للناس .

* * *

لم تعد بيعة العقبة الثانية إذن كافية لتنظيم أمور الأمة التى كانت تتطور طورا سريعا ، وتسير خطوة خطوة نحو الغاية التى رسمها الله سبحانه لرسوله ، ومضى رسوله يسعى لتحقيقها على أحسن مايكون التحقيق .

كان لابد من أساس تشريعى جديد يقوم على الشورى والتراضى والاقتناع ، ولا يقوم قط على الأمر والتسلط والتحكم ، فهذه أمة الإسلام وأمة الإنسان الحر الذى يشعر أنه عضو فى جماعة حرة خيرة يقوم أمرها على التراضى والتشاور والاقتناع ، وهدفها خدمة الجماعة كلها والتساوى فى الحقوق والواجبات بين أفرادها جميعاً .

لهذا . . فعندما أحس الرسول أن أصحابه من أهل المدينة يريدون أن يشاركوا فى ذلك العمل العظيم الذى بدأه وسار فيه ، شرع فى التشاور معهم ومع بقية أصحابه فى وضع أساس قانونى أو قل شرعى أو تشريعى لبناء الأمة الجديدة .

* * *

ثم إن النجاح الباهر الذى حققته أمة الإسلام فى الأمد القصير أثار الحسد والخوف والحقد فى قلوب الكثيرين من أهل المدينة الذين لم يتنبهوا أول الأمر إلى أهمية أمة الإسلام التى قامت فى بلدهم . . والتغيير البعيد المدى الذى كان لابد أن يحدثه قيام هذه الأمة فى تكوين مجتمع المدينة ونظامه ومسئوليات أهله .

فقد كان فى المدينة قبل مجىء الرسول وأصحابه ناس لهم زعامة ورياسة ومكانة . وكانوا يحسبون أن مجىء محمد وأصحابه لن يؤثر فى هذه الرياسة وتلك المكانة ، ومنهم من أسلم بشفتيه دون قلبه حاسباً أن الإسلام كلمة تقال وشرف يناله الإنسان دون أن يتحمل فى سبيله مشقة .

وبعضهم ظل على كفره أو على دينه السابق ظَناً منه أن هذه جماعة صغيرة تلتف حول نبيها وتقوم بعباداتها وستظل صغيرة مقتصرة على أصحابها أبداً ، فإذا بهم يفاجأون أن هذه الدعوة ليست كلمة تقال أو رتبة جاه تنال دون مقابل من تعب وجهد وتضحية ، إنما هى دعوة عامة لتغيير نظام المدينة كلها أولا ثم الحجاز كله بعد ذلك ، وهاهى ذى أعداد المسلمين تتزايد يوماً بعد يوم ، ويظهر من شباب أهل المدينة ورجالها الذين كانوا من قبل أغماراً . . رجال جدد صاغهم الإسلام صياغة جديدة ، فأصبحوا مجاهدين وقادة وأصحاب رأى ، وهم ملتفون حول نبيهم يتلقون منه آيات القرآن ويعملون بها ويتبعون سنته المثلى .

فأخذت الغيرة تأكل قلوبهم وشملهم الخوف ، ومنهم من وجد السلامة ـ أو أحس أنه وجدها ـ فى التظاهر بالإسلام والتقرب من رسول الله . ومنهم من استمسك ـ مع الإسلام أو بدونه ـ بأهداب زعامته المولية . فظهرت معارضة قوية وخطرة بعضها معلن وبعضها مستور . وبدأ هؤلاء جميعاً يهاجمون الأمة ويكيدون لها ولرسولها ، فكان لابد من حماية الأمة بتحديد معالمها وإظهار شخصيتها وبيان من منها ومن ليس منها ، ومن يحالفها أو يعاهدها أو يعاندها ومن يعاديها . وكان لابد كذلك من بيان حقوق رجال الأمة ـ أفراداً وجماعات ـ وواجباتهم .

بعبارة واحدة نستعيرها من مفهومات عصرنا : كان لابد من إعلان قيام الأمة ووضع شريعتها أو دستورها وتحديد الالتزامات المعنوية والمادية التى يتطلبها الدخول فى الأمة حتى يدخل فيها من يريد الدخول على بينة . وحتى يعلم أنه بدخوله هذا يدخل فى أمة وعهد وعقد ، بل يدخل فى عصر جديد من حياته لا علاقة له بما مضى من عمره .

ولست أقول هذا على سبيل الإنشاء أو الاسترسال مع التأمل ، فهذا الذى نكتبه إنما هو تاريخ للإسلام جديد يقوم على منهج فى البحث والاستقراء جديد . وقد سبق أن رأينا أن أمة الإسلام قد جرفتها الحوادث من منتصف العصر الراشدى وحملتها فى تيار جاهلى لا يتفق مع طبيعة الإسلام وبناء أمته وغايات هذه الأمة ، فدخلنا فى عصور « الخلافة ـ الملك » التى حولت أمة الإسلام إلى دولة دنيوية من طراز الدول السابقة على الإسلام ، أى من طراز الدول التى جاء الإسلام لكى يزيلها ويحرر الناس من ربقتها ، ويدخلها فى عصر الأمة الحرة المؤمنة التى تقوم على الإنسان الحر الكريم المحترم الذى يقوم بالتزاماته نحو الأمة ، لأنه إنسان مؤمن حر كريم محترم لا رعية لملك مستبد أو طاغية غاشم .

ومن غريب الأمر أن الفكر السياسى الإسلامى كله انحصر فى موضوع « الخلافة الملكية » هذا . من يستحقها ومن لا يستحقها . . وكيف يستطيع « الخليفة ـ الملك » أن يكون رءوفاً رحيمًا برعيته ، وماالذى يصلح السلطان وماالذى يفسده وماإلى هذا من المباحث الفرعية البعيدة جداً عن طبيعة أمة الإسلام وغاياتها .

ونحن لا نريد بهذا أن نقول : إن الخلافة ليست من الإسلام ، أو أن الملك يتعارض مع الإسلام ، فإن الخلافة أو الملك أو السلطنة وما إليها صور شكلية لممارسة تنظيم أمور الأمة ، فالإسلام لا ينكر الخلافة ولا ينكر الملك أو الإمارة ، فهذه كلها أشكال تنظيمية إذا ارتضتها الأمة واختارتها لم يكن بها بأس ، ولكنها تظل كما قلت تنظيمات شكلية . . للأمة أن تصوغها كيف تشاء .

أما المهم فهو الأمة الحرة الكريمة المؤمنة المتحدة فى المبادىء والغايات الملتفة حول القرآن ، المؤمنة بالإسلام إيماناً صحيحاً ، ولا أقول هنا « الملتفة حول راية القرآن » أو السائرة تحت ظلال القرآن ، فهذه كلها تعبيرات بلاغية ووهمية ، لأن الناس قد يسيرون وراء راية لا يفهمون من أمرها شيئا ، وقد يستظلون بالقرآن دون أن يفهموه أو يعملوا به ، إذ أن المهم والأساس هنا هو أن نكون نحن القرآن نفسه ، أن نكون نحن السنة بنفسها وروحها .

أما أن يكون الإسلام مجرد راية نرفعها أو ظلال نسير تحتها فكلام لا معنى له ، بل هو تضليل واضح ، فالقرآن ليس راية والسنة ليست ظلالاً . إنما القرآن والسنة حياة ينبغى أن نعيشها فى عمق كما عاشها الرسول ﷺ وصحبه ، ولأنهم عاشوها فى عمق فقد استطاعوا أن ينشئوا للإنسانية كلها عصراً جديداً دخلت فيه أمم بعد أمم .

وكان من الممكن أن يظل هذا العصر الجديد جديداً كل يوم لو أننا عشنا القرآن والسنة حقاً ولم نجعل القرآن راية والسنة ظلالاً

ألا تذكر قول السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله كان خلقه القرآن ؟ فهذا هو الذى أريد أن أقوله .

ويحاول بعض قدامى المؤرخين أن يصوروا لنا أسباب نفاق المنافقين أو كراهة بعض أعداء الإسلام للإسلام فى أول عهده بالمدينة ، بالقول ـ مثلاً ـ بأن أهل المدينة كانوا ينظمون الخرز ليصنعوا منه تاجاً يتوجون به عبد الله بن أبىّ بن سلول ، فلما جاء محمد إلى المدينة بالإسلام وقف ذلك كله ، فحقد عبد الله بن أبىّ بن سلول على الإسلام والرسول والمسلمين ، وهذا كلام ساذج .

وعبد الله بن أبى بن سلول كان قبل الإسلام أقل من ذلك بكثير ، ثم : منذ متى كانت العرب فى الحجاز تتوج على نفسها رجلاً ؟ لقد فكر فى ذلك مرة عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، وكان قد تنصر ، وداخل رجال الروم فى أن يكون فى مكة بمنزلة أمراء الغساسنة ، فما كاد يعود إلى مكة ويسمع الناس بدعوته حتى قام عليه أهل قبيلته نفسها برياسة ابن عمه الأسود بن المطلب ، فهرب عثمان إلى الشام ، وحاول إيذاء القرشيين ، فما زالوا به حتى سجنه رجال دولة الروم ومات فى السجن .

والحقيقة أن نجاح دعوة الإسلام ، وتوفيق محمد العظيم فى بناء الأمة وقيادتها أثار الغيرة والحسد فى قلوب من كانت لهم رياسة ومكانة يدلون بها على الناس ، فلما أزالها الإسلام حقدوا عليه وسعوا فى الإضرار به وبجماعته ، وكان هذا من العوامل التى جعلت محمد ﷺ يجتهد فى التشاور مع أهل أمته فى وضع قانونها لحمايتها وإظهار شخصيتها والنص على أن هذه هى أمة الإنسان المؤمن الحر الكريم الذى يعرف ماله وماعليه ، فيأخذ ماله ولا زيادة ، ويؤدى ماعليه ، وإذا أراد الزيادة زاد ، وكل شىء بثوابه وحسابه فى شرعة الإسلام .

وكان أشد الناس خوفاً من نجاح أمة الإسلام هم يهود المدينة ، فقد كانوا قبل مجىء الرسول يزهون على أهل المدينة بأنهم أهل كتاب ، وأنهم أمة الله ،

وأن الله ناصرهم بدينهم لأنهم أمتـه ، وأن النصر سيأتيهم كما هو ثابت فى شرعتهم على يد نبى يبعث كما زعموا من أصلابهم ومن أسباطهم تتحقق على يديه البشرى بنصر أمة الله على من عداها .

وكانوا إلى جانب ذلك يكتبون ويقرأون ويمارسون أعمالاً رئيسية مثل الزراعة والصناعة ، وجماعة منهم بالذات هم بنو قينقاع احتكروا الحدادة والصباغة ، وأهم عمـل فى الحدادة هو صناعة السلاح من سيوف ودروع ، وهذا أساس عظيم من أسس القوة . ولهذا فإن اسمهم قين (وهـو الحداد) والقيون : أى أهل الحدادة .

وأمـر هؤلاء اليهـود عجب . فنحن نقـرأ الكثير عن تمسكهم بعقيدتهم واعتـزازهم بها ، ومع ذلك فلا نجدهم قد أقاموا لأنفسهم فى المدينة بيعة أى معبداً ، ولا اتخذوا كاهناً ولا كان فيهم رئيس دينى مشهود له بالعلم والجاه فى قومه .

والذى نعلمه أن كل جماعة يهودية فى الدنيا أيا كان حجمها لابد لها من بيعة فيها تابوت أى خزانة كتب العقيدة وذخائر البيعة أو الكنيس ، ولابد لها من ربن أو ربان أو ربى (بفتح الراء وكسرها) وهو الكاهن .

ولكن يهود المدينة لم يكن لديهم من ذلك كله شىء . إنما هم يوصفون بأنهم يهود وأهل كتاب فحسب . وعندما استولى المسلمون على ديارهم وأراضيهم لم يجدوا فيها بيعة ولا مصلى ولا كتباً دينية . وقد أتانا السمهودى ببيان شاف عن ديارهم وآطامهم ولكنه لم يذكر لهم كنيساً واحداً ، وأتانا البلاذرى فى أنساب الأشراف ببيان « أسماء عظماء يهود » فلا نجد فيهم كاهناً ، إنما يوصف بعض رجالهم بأنهم كانوا من أحبارهم .

ويهـود المدينة فيما يقال كانوا أول الأمر أصحاب السهل الذى نشأت فيه المدينة ، ومن كلام السمهودى نفهم أنه عندما جاء الإسلام كـان بنو النضير

وبنو قريظة وبنو قينقاع يملكون جنوب شرقى السهل كله ، وكانت أراضيهم أخصب أراضى المدينة وأوفرها زروعاً ، وكانوا يملكون عند الهجرة ٥٩ أطما (بضم الهمزة والطاء وهو الحصن) فى حين أن بقية قبائل المدينة مابين أوس وخزرج كانوا لا يملكون إلا ٣٠ أطمًا . وربما دلت كثرة حصونهم على أنهم كانوا أضعف من الأوس والخزرج عسكرياً ، ولهذا احتاجوا إلى الآطام الكثيرة .

وعندما نزل الأوس والخزرج سهل المدينة نزلوا فى حلف اليهود وجوارهم ، لأن اليهود كانوا أول من عمر السهل . وكانت جماعاتهم الثلاث الكبرى يهودية أصلاً ، هاجرت إلى الحجاز من فلسطين . ولكن بطونا من القبائل العربية أخذت اليهودية ، ويذكر السمهودى من هؤلاء بنى مرثد وبنى معاوية وبنى جذماء ، وبنى نجيشة وبنى زعورا وبنى ثعلبة .

ولكن هذه البطون لم تكن أوسية أو خزرجية من ناحية الأصل ، فبنو مرثد ينتسبون إلى بلى بن إلحاف بن قضاعة ، وبنو معاوية كانوا بطناً من سليم بن منصور ، أما بنو جذماء وبنو النجيش فكانوا من مهاجرة عرب اليمن ، وبنو زعورا وبنو ثعلبة كانوا بطنين من غسان من عرب الشام .

وكانت هناك بطون أخرى من اليهود داخلة فى حلف المجموعات اليهودية الثلاث الكبرى مثل بنى هلال . وهم عرب حلفاء لبنى قريظة . وعندما نزل الأوس والخزرج السهل كانوا ضعافاً فدخلوا فى حلف اليهود ، ثم تكاثروا واستقووا مع الزمن .

وكان بنو ثعلبة أول الأمر أقوى قبائل اليهود ، ومنهم كان الفطيون الذى يقال إنه أقر الأوس والخزرج فى سهل المدينة على أن يمارس معهم تقليداً عرفه يهود الشام وهو تقليد افتضاض كل عروس ، فلمَّا استقوى العرب رفضوا ذلك وتزعمهم فيه مالك بن العجلان من بنى عوف بن الخزرج ، وهو الذى حارب

بنى ثعلبة وقتل الفطيون زعيمهم ، وكانت تلك بداية استقلال الأوس والخزرج عن اليهود ثم سيادتهم على السهل ودخول اليهود فى حلفهم ، وأخذت بعض بطون اليهود تدخل فى حلف القبائل العربية وترتد عن اليهودية . .

وأهم هؤلاء بنو زعوراء الذين دخلوا فى بنى عبد الأشهل ، وأصبحوا من زعمائهم ، ومن بينهم نبغ سماك بن عتيك بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل وهو الذى قاد الأوس وكسب لهم النصر على الخزرج فى معركة بعاث ، وابنه هو الفارس حضير بن سماك الذى يلقب لفروسيته بحضير الكتائب ، وابنه الصحابى الفارس المعروف أسيد بن الحضير الذى يصفه ابن حزم فى الجمهرة بأنه « بدرى عقبى نقيب » وتلك أعلى مراتب المسلمين جميعاً : أن يكون ممن شهدوا بدراً والعقبة الثانية وكان واحداً من الاثنى عشر نقيباً .

ومهما بحثنا فإننا لانتبين أن اليهود كانوا قوة دينية كبيرة فى المدينة عندما بدأ محمد يبنى الأمة ، ولكنهم كانوا قوة عسكرية ، فبنو قينقاع مثلاً كانوا حلفاء عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين وكان قبل الإسلام سيد بنى سالم الحبلى . وكانت قوة بنى قينقاع تقدر بسبعمائة محارب منهم ثلاثمائة دارع . .

ولكن أولئك اليهود أخذوا يتحولون إلى قوة معارضة دينية خطرة عندما قامت أمة الإسلام ، كأنما أشعرهم قيام الإسلام بأنهم يهود فتصدوا له فى عناد شديد ، ولم تكن العداوة راجعة إلى الدين ، فقد رأينا أنهم من الناحية الدينية لم يكونوا بأهل عقيدة متمسكين ، وإلا فأين بيعهم وأحبارهم وكتبهم ؟ ولكن العداوة كانت عصبية ، أى أنه عز عليهم أن يجىء النبى البشير من العرب فأنكروا إلا نفرا قليلاً ممن عصمهم الله من أمثال الحصين بن سلام (بدون تشديد اللام) من بنى قينقاع ، وقد أسلم وأصبح اسمه عبد الله بن سلام وحسن إسلامه ، وهناك يهود أسلموا نفاقاً وكانوا شراً على الإسلام مثل مالك بن أبى قوقل الذى

تعوذ بالإسلام (وكان ينقل أخبار النبى ﷺ إلى يهود) كما يقول البلاذرى ، ورافع بن حريملة الذى يعد من كبار المنافقين .

وقد أخذت عداوة اليهود للإسلام وأهله تزداد بزيادة قوة الأمة . . ويذكر الواقدى أن اليهود عاهدوا محمداً ﷺ على ألا يظاهروا عليه عدواً ، ويذهب ابن إسحاق إلى أن بنى قريظة عاهدوا محمداً على أن يدعوه وشأنه دون أن يدخلوا الإسلام .

وكان محمد لا يشك فى أنهم سيكونون أول الناس تأييداً له ، لأن القرآن يؤكد له أنه جاء مصدقاً لما فى كتبهم ، وهذا حق . . فلما رأى موقفهم هذا تركهم وشأنهم مؤمناً بأنهم سيتغلبون على عصبيتهم وسيعترفون بالحق ويفيئون إلى أمر الله ولكنهم ازدادوا عناداً واستقووا بالمنافقين فأصبحوا خطراً على الأمة .

لهذا كان لابد من تحصين الأمة بإظهار شخصيتها وإعلان قيامها ووضع قانونها حتى يعرف المسلمون من هم وأين هم وماذا لهم وماذا عليهم ، ويشعروا بقوتهم ويسيروا فى طريقهم على هدى من أمرهم أمة واحدة متآخية متحابة مؤمنة حرة . . رسالتها إدخال الناس جميعاً فى الإسلام .

* * *

تلك هى الظروف التى جعلت محمداً يشاور أصحابه لوضع دستور الجماعة ، وقد رأى رسول الله أن يكون الدستور مكتوباً حتى يلتزم به أصحابه ، وسنعرضه فقرة فقرة . . ونناقشه ، وسنرى من دلائل أصالته مايدحض حجة أى مكابر ، وإذا قلنا إن للمحدثين القدامى عذرهم لأن نص الصحيفة لم يصل إليهم كاملاً عن طريق السند الصحيح الذى يشترطونه ، فما عذر المؤرخ المحدث وهو يجد نص الصحيفة كاملاً بين يديه ، ويرى دلائل أصالته من كل

ملمة فيه ؟ وماعذره بعد أن بينا له الظروف التى أحاطت بأمة الإسلام الناشئة ، وهى ظروف عسيرة استعدت جمع الأمة فى وحدة واحدة ذات نظام واحد لتواجه خصومها مواجهة فعالة وهى فى عنفوان نهوضها ؟

ولا أجد ماأؤيد به ما أريد قوله إلا أن أورد فيما يلى بضع آيات من سورة البقرة نزلت قبيل كتابة الصحيفة وأثناء كتابتها ، وهى تؤيد ماقلناه وليس بعد القرآن عندنا دليل ، وسنرى أن الصحيفة كتبت على مراحل نعتقد نحن أنها أربع ، ويرى بعض الباحثين أنها أكثر من ذلك ، وهذه التقسيمات كلها ـ أيا كان عددها ـ تزيد من قيمة الصحيفة وتؤيد أصالتها ، فإنها ـ بصفتها دستور الأمـة ـ كانت قانـوناً مفتوحاً ، كلما تغيرت واستدعى الأمر زيادة مواد جديدة تشاور المسلمون وكتبوا مااتفقوا عليه واعتبروه جزءاً من الصحيفة واستمع إلى قول الله تعـالى : ﴿ **إنَّ الذينَ كَفَـرُوا سَوَآءٌ عَلَيهم أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذرهُم لَا يُؤمنُـونَ . خَتَمَ الله عَلَى قُلُوبهم وَعَلَى سَمعهمَ وَعَلَى أَبصَارهم غشَاوَةٌ وَلَهُم عَذَابٌ عَظيمٌ . وَمنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بالله وَباليَوم الآخِرِ وَمَاهُم بمُؤمنِـينَ . يُخَـادعُـونَ الله وَالذينَ آمَنوُا وَمَـايَخـدَعُـونَ إلَا أَنْفُسَهم وَمَايَشعُرونَ** ﴾ . (البقرة : الآيتان ٦ ـ ٩) .

وهذه الآيات ترينا كيف أنه كان من الضرورى إظهار وحدة الأمة وإعلان شخصيتهـا حتى يتحدد الموقف بينها وبين أعدائها الذين يندسون بين صفوفهم و « يخادعون الله والذين آمنوا » .

ثم اقـرأ الآيات التالية من سورة البقرة أيضاً لكى ترى كيف كان اليهود يقولون إنهم ينتظرون البشير ، فلما جاء أنكروه : ﴿ **مَثَلُهُم كَمَثَل الذى استَوقَدَ نَاراً فَلَمَّآ أَضَاءَتْ مَاحَولَهُ ذَهَبَ الله بنورهم وَتَرَكَهُم فى ظُلُمَاتٍ لَا يُبصرونَ . صُمٌّ بُكْمٌ عُميٌ فَهُم لَا يَرجعُونَ** ﴾ . (البقرة : الآيتان ١٧ ـ ١٨) .

ثم تأمل هذه الآيات التى تخاطب المؤمنين الصادقين :

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . (البقرة : الآيات ٢٥ـ٢٨) .

فا لصحيفة كتبت للذين أمر الله رسوله أن يبشرهم أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . الذين يعلمون أنه الحق من ربهم ، وقد كتبت كذلك لتحمى الأمة من الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل .

وهى من هذه الناحية ـ تاريخياً ـ الحد الفاصل بين من آمن ومن لم يؤمن ، بين من يصلح ومن يفسد ، بين أمة الله وأعداء أمة الله .

* * *